أثر المسائل النحويّة في إبراز المعنى واتّساعه في القراءات القرءانيّة

The role of grammatical issues in clarifying the meaning and its breadth in Quranic readings (El qirÃat)

يونس زواوي[1]*

جامعة البليدة 02 (الجزائر)

iyadyacin@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/06/11 ـ تاريخ القبول: 2022/06/19 ـ تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

يستند هذا البحث المقدَّم على المنجز اللغوي النحويّ العربيّ في بعده التراثيّ ليصل إلى إبراز المعنى والدلالة للبنى اللغوية؛ وذلك انطلاقا من القرءان الكريم في قراءاته القرءانيّة المتواترة. ومن خلال ذلك بنينا هذا البحث حول إشكالية عامة مفادها: كيف نستثمر البحث اللّغويّ عامّة والنحويّ خاصّة في إبراز جملة المعاني والدلالات في الآيات القرآنية من غير تعارض بالرغم من اختلاف القراءات القرءانية؟ وسنحاول العمل على كل هذا – إن شاء الله– انطلاقا من استقراء وتحليل مجموعة من الآيات البيّنات مع توجيهاتها المبثوثة في كتب توجيه القراءات، أو كتب التفسير، أو اللغة؛ بهدف إبراز أهمية المنجز النحوي في تبيين المعنى من غير إخلال أو تباين أو تضاد فيما بين أوجه القراءات القرءانية؛ ليكون الهدفُ توضيحَ ما للغة العربية من شساعة دلاليّة ضمن حيّز بنويّ لغويّ محدود الأصوات؛ وأنّها بحقّ استحقت أن تكون لغة كتاب الله تعالى وحاملة معانيه المعجزة.

كلمات مفتاحية: النحو، المعنى، الدّلالة، القراءات، القرآن.

Abstract:

This research relies on Arabic grammatical laws to highlight the meaning and significance of words and sentences; This is based on a sacred linguistic code, which is the Holy Qur'an in its Qur'anic readings. Based on

this, we can build this research around a general problem of: How do we invest in linguistic research in general and grammar in particular in highlighting the meanings and connotations of the different Qur'anic qirÃat (readings)? We will try to work on all this - God willing - based on the extrapolation and analysis of clear verses with their interpretations found in books of el qirÃat (readings), or books of interpretation or language; In order to clarify the importance of grammar in clarifying the meaning without prejudice or contradiction between the Qur'anic readings ; In the end, to clarify the semantic breadth of the Arabic language within a limited linguistic space, the sounds of the Book of God Almighty and bearing its miraculous meanings.

Keywords: syntax; the meaning; semantic; qirÃat; The Qur'an.

1. مقدمة:

أنزل الله كتابه الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم، فكان معجزة الله الخالدة، ونزل بلسان عربيّ مبين على سبعة أحرف، وقد ورد في الحديث الصحيح تلك القصة المعلومة في هذا الباب، ولنا أن نوردها قصد الإيضاح والتبيين لذلك الحرص الشديد في ضبط القراءة القرءانية، فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي ومالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:« سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فاستمعت لقراءته، فإذ هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكدت أساوره في الصلاة فتربصت حتى سلّم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: كذبت، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: يا رسول الله: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي كنت سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:« هكذا أنزلت»، ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:«اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هكذا أنزلت، إنّ

هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه»[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه حين سُئل عن كيفيّة قراءته صلّى الله عليه وسلّم؛ فقال:« كانت مدّا، ثمّ قرأ: بِسم الله الرَّحمن الرّحيم، يمدّ بـ"بسم الله"، ويمدّ بـ"الرّحمن"، ويمدّ بـ"الرّحيم"»[2]، وعن أمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها أنّها قالت:« وكان يقرأ بالسّورة فيرتّلها حتى تكون أطولَ مِن أطولَ مِنها»[3].

واختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة، وانقسموا في ذلك إلى مذاهب متعدّدة وآراء مختلفة، وسنختار إيجازا مذهب ابن الجزريّ في تحديده لمعنى الأحرف السّبعة لشهرته، وقد ساق الإمام السّيوطيّ آراء كثيرٍ من أهل العلم بلغت خمسة وثلاثين قولا[4]، وليس ابن الجزريّ في مذهبه أبا عذرة؛ بل هو في تفسير الحديث موافقٌ لمذهب أبي الفضل الرازي وابن قتيبة وابن الطيّب، وهي لا تخرج عن اختلاف الأسماء من إفراد، وتثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث. والثاني: اختلاف تصريف الأفعال، من ماض ومضارع وأمر، والثالث: اختلاف وجوه الإعراب، والرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، والخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير، والسادس: الاختلاف بالإبدال، والسابع: اختلاف اللغات- اللهجات- كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام.

وعلى هذا المذكور فإنّنا نهدف إلى الوصول إلى جملة المعاني المتعدّدة ضمن الاختلافات الأدائية للقراءات القرءانيّة انطلاقا من القوانين اللغوية في مستوياتها المختلفة مركّزين على المستوى التركيبي والصّرفي أكثر من خلال نماذج نعمل عليها وفق منهج وصفيّ بآليات التحليل والاستقراء.

2. مفهوم علم القراءة:

أمّا الحد اللغويّ لكلمة "القراءة"؛ فالقاف والرّاء والهمزة في اللغة تدلّ على الجمع، يقول ابن فارس:« (قري) القاف والراء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على جمع واجتماع»[5].

وأمّا الحدّ الاصطلاحيّ؛ فإنّا نجد ابن الجزريّ قد أجمل في التعريف الاصطلاحيّ فقال:« القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة. خرج النحو واللغة والتفسير وما أشبه ذلك. والمقرئ العالم بها وراها مشافهة»[6].

ونجد الزُّرقانيّ فصّل أكثر فقال في حدّها:« مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفا به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها»[7].

3. ضوابط القراءة الصّحيحة:

ضبط أهل العلم من علماء القراءةِ شروط القراءة الصحيحة المقبولة، ولا بد أن نشير ههنا إلى أنّ المعتبر في علم القراءة هو الرّواية قبل الدّراية، وقد نبّه إلى ذلك الإمام الدّاني فقال:« وأئمّة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربيّة؛ بل على الأثبت في الأثر، والأصحّ في النّقل، والرّوايةُ إذا ثبتت لا يردّها قياس عربيّة ولا فشوّ لغة؛ لأنّ القراءة سُنّة متّبعة، يلزم قبولها والمصير إليها»[8].

لقد اتّسمت مرحلة التّأليف في القراءات باختيارِ ما اشتهر من القُرّاء في الأمصار التي كان بها المصاحف أو ما جاورها[9]، ومحاولةِ ضبط القراءات المنتشرة الكثيرة، وعزوِ كلّ وجه أدائيّ إلى قارئه. وإنّما كان اختيار القرّاء ونسبةُ القراءة إليهم نسبةَ ضبط وشُهرة لا نسبة اختراع واختيار؛ إذ القراءة سنّة متّبعة كما رأينا، فألّفَ القاسم بن سُلاّم (ت224هـ) كتابه "الجامع في القراءات" وارتكز في اختيار القراءة على الشّروط الثلاثة المعلومة التي ذكرها ابن الجزريّ في النصّ الذي سقناه آنفا: صحّة النّقل، وموافقة رسم المصحف، وموافقة العربيّة ولو بوجه. واختار من القرّاء خمسة وعشرين قارئا. وألّف أبو حاتم السّجستانيّ (ت250هـ) كتاب " القراءات"، وتوالى التأليف في القراءات وكلّ واحد يختار عددا من القرّاء، حتى جاء القرن الرّابع حيث ألّف ابن مجاهد كتابه "السّبعة في القراءات" الذي يُعدّ أشهر كتب القراءات وعمدة هذا العلم، وهو أوّل من سبّع السّبعة، وجعل لكلّ قارئ راويين، وتلقّت الأمّة كتابه بالقبول، وبقي التّأليف في هؤلاء السّبعة أو بزيادة[10]؛ ككتاب "المبسوط في القراءات العشر" لابن مهران الأصبهانيّ (ت381هـ)، و"التّذكرة في القراءات الثّمان" لطاهر بن غلبون (ت399هـ) ، و"الأوسط في القراءات الثمان" للعُمانيّ (ت بعد 413هـ)، ثمّ ألّف مكّي بن أبي طالب القيسيّ (ت437هـ) بعد ابن مجاهد كتابه "التبصرة في

القراءات السّبع" وألّف أبو عمرو الدّاني (ت444هـ) كتابه العظيم "التّيسير في القراءات السّبع"، ونظم الكتابَ الإمامُ الشّاطبيُّ في قصيدته المشهورة "حرز الأماني ووجه التّهاني في القراءات السّبع"، وتُعدّ قصيدة الشّاطبيّ "الشّاطبيّة" مرجع الأوجه والتّحريرات في القراءات السّبعة، وهاته الكتب حول القراءات هي كتبٌ اختارت القرّاء الذين انتخبهم ابن مجاهد في كتابه "السّبعة"، إلى أن جاء كتاب "النّشر في القراءات العشر" لابن الجزريّ وهو عمدة هذا العلم بعد أن ضمّ للسّبعة ثلاثة آخرين[11]، واستقرّ الأمر بهذه الأمّة على أن تقرأ القرءان بمضمون "الشّاطبيّة" و"النّشر" وما يحويانه من تحريرات وأوجه وطرق للقرّاء السّبعة أو القرّاء الثّلاث المتمّمين للعشرة.

وشروط القراءة الصحيحة ثلاثة، يقول الإمام ابن الجزريّ في ذلك:« وها نحن نشير إليها ونعول كما عولوا عليها فنقول: كلّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها»[12].

والقرّاء السّبعة هم:

1. والقرّاء السّبعة هم: نافع المدني (ت169هـ)؛ وراوياه: قالون وورش.
2. ابن كثير المكيّ (ت120هـ)؛ وراوياه: البَزّيّ وقُنبُل.
3. أبو عمرو البصريّ (ت154هـ)؛ وراوياه: السّوسيّ والدّوريّ.
4. ابن عامر الدّمشقيّ (ت118هـ)؛ وراوياه: هشام وابن ذكوان.
5. عاصم الكوفيّ (ت128هـ)؛ وراوياه: حفص وشعبة.
6. حمزة الزّيّات (ت156هـ)؛ وراوياه خلف وخلاّد.
7. الكسائيّ (ت189هـ)؛ وراوياه: أبو الحارث والدّوريّ.

أمّا القرّاء الثلاثة المتمّمون للسّبعة؛ فهم:

1. أبو جعفر المدنيّ (ت169هـ)؛ وراوياه: ابن وردان وابن جمّاز.
2. يعقوب بن إسحاق الحضرميّ (ت250هـ)؛ وراوياه: رُويس ورَوح.

3. خلف بن هشام البزّار (ت229هـ)؛ وراوياه: إسحاق وإدريس.

5. نماذج تطبيقيّة من آيات الله تعالى لتبيين أثر المسائل اللّغويّة في إبراز المعنى:

1.5. قوله تعالى:﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)﴾ سورة البقرة:36.

اختلف القرّاء في قراءة كلمة "أزلّهما"، فقرأ حمزة الزيّات بألف بعد الزّاي "أزال"، وقرأ البقيّة بتشديد اللام "أزلّ".

وانطلاقا من الدرس النحوي فإنّ المعاني ههنا تتوالد وتتّسع، يقول القرطبيّ في تفسيه:« قال أبو جعفر: اختلفت القَرَأة (2) في قراءة ذلك. فقرأته عامتهم "فأزلّهما" بتشديد اللام، بمعنى: استزلّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال:"فأخرجهما" يعني إبليس"مما كانا فيه"، لأنه كانَ الذي سَبَّب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة»[13]، وعلى القراءة الثانية فيصير الفعل "أزال"، بمعنى التنحية؛ يقول السمين الحلبي:« فقراءةُ الجماعةُ تُؤْذِنُ بإيقاعهما في الزَّلَّةِ، فيكونُ زلَّ استنزل، وقراءةُ حمزة تؤذن بتنحيتِهما عن مكانِهما»[14]، وعليه فقراءة الجمهور تجعل المعنى هو أنّ الشيطان أكسب آدم وحواء الزلّة والخطيئة بأكلهما من الشجرة المنهيّان عنها.

وعلى قراءة حمزة فالمعنى هو أنّ الشّيطان أبعدهما عن نعيم الجنة وما هم فيهما من فضل، والفعلان كلاهما مزيدان بألف التعدية.

وقد جمع السّمين الحلبيّ بين القراءتين ليخرج بمعنى جامع حيث يقول:« قرأ حمزة: «فَأَزَالهما» والقِراءتان يُحتمل أن تكونا بمعنىً واحدٍ، وذلك أنَّ قراءةَ الجماعةِ «أَزَلَّهما» يجوز أَنْ تكونَ مِنْ «زَلَّ عن المكان» إذا تَنَحَّى عنه فتكونَ من الزوالِ كقراءَةِ حمزة، ويَدُلُّ عليه قولُ امرئ القيس:

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ *** كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتَنَزَّلِ

وقال أيضاً:

يَزِلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهَوَاتِهِ *** ويَلْوِي بأثوابِ العنيفِ المثَقَّلِ

فَرَدَدْنا قراءَة الجماعة إلى قراءة حمزة، أو نَرُدُّ قراءَةَ حمزةَ إلى قراءَةِ الجماعة بأَن نقول: معنى أزالَهما؛ أي: صَرَفَهُمَا عن طاعةِ الله تعالى فَأَوْقَعَهما في الزَّلَّةِ لأنَّ إغواءَه وإيقاعَه لهُما في الزَلَةِ سببُ للزوالِ. ويُحتمل أن تفيدَ كلُّ قراءةٍ معنًى مستقلاً، فقراءةُ الجماعةُ تُؤْذِنُ بإيقاعهما في الزَّلَّةِ، فيكونُ زلَّ استنزل، وقراءةُ حمزة تؤذن بتنحيتِهما عن مكانِهما»[15].

2.5. قوله تعالى: ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (119) ﴾ سورة المائدة:119.

قرأ الجمهور كلمة "يوم" بالرّفع، وقرأ نافع "يوم" بالنّصب، يقول ابن الجزريّ:« واختلفوا في: "هذا يوم"، فقرأ نافع بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع»[16].

وعلى قراءة الرّفع فأمرها جليّ، وتصير خبرا للمبتدأ "هذا". ويصير معنى الآية هو أنّ الله قال لسيّدنا عيسى – من خلال سياق الآية – بأنّ هذا اليوم – وهو يوم القيامة – هو اليوم النافع للصادقين إذ صدقوا.

وعلى قراءة نافع بالنّصب فقد استشكلت على كثير، وتوجيهها من عدّة وجوه[17]، ونختار الجامع فيها وهو أنّ معناها أنّ الله قد قال لسيدنا عيسى ما قال في يوم القيامة، يقول القرطبيّ في ذلك:« وأما قراءة نافع وابن محيصن فحكى إبراهيم بن حميد عن محمد بن يزيد أن هذه القراءة لا تجوز لأنه نصب خبر الابتداء ولا يجوز فيه البناء. وقال إبراهيم بن السري: هي جائزة بمعنى قال الله هذا لعيسى بن مريم يوم ينفع الصادقين صدقهم فيوم ظرف للقول و" هذا" مفعول القول والتقدير قال الله هذا القول في يوم ينفع الصادقين»[18]، وقال في البحر المحيط:« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم قرأ الجمهور هذا يوم بالرفع على أن هذا مبتدأ ويوم خبره والجملة محكية بقال وهي في موضع المفعول به، لقال: أي هذا الوقت وقت نفع الصادقين وفيه إشارة إلى صدق عيسى عليه السلام. وقرأ نافع هذا يوم بفتح الميم وخرجه الكوفيون على أنه مبني خبر لهذا وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنيا في بناء الظرف المضاف إلى الجملة، فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى»[19].

3.5. قوله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ سورة البقرة:197.

واختلف في هذا الموضع من سورة البقرة، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو البصريّ وأبو جعفر المدنيّ ويعقوب برفع وتنوين "رفثٌ"، و"فسوقٌ"، وانفرد عنهم أبو جعفر برفع "جدالُ".

وقرأ البقيّة بالنّصب في الكلمات الثلاث "رفثَ"، و"فسوقَ"، و"جدالَ".

وفي تبيين المعاني المستنبطة من الآية الكريمة يقول العلاّمة الزّمخشريّ رحمه الله:« وقرئ المنفيّات الثلاث بالنصب وبالرفع. وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأوّلَين بالرفع والآخِرَ بالنصب؛ لأنهما حملا الأوّلَين على معنى النهى، كأنه قيل: ولا خلاف في الحج. وذلك أنّ قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، وسائر العرب يقفون بعرفة وكانوا يقدّمون الحجّ سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء، فرُدّ إلى وقت واحد ورُدّ الوقوف إلى عرفة، فأخبر اللّه تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج. واستدلّ على أن المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى اللّه عليه وسلم «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم ولدته أمه»، وأنه لم يذكر الجدال»[20].

وعلى هذا فقراءة النّصب تفيد بأنّ المعنى هو انتفاء الرّفث والفسوق والجدال في موسم الحجّ على كون "لا" فيها لنفي الجنس و"في الحج" متعلّق بخبرها المحذوف، وعلى قراءة رفع الموضعين الأوّلين فتوجيه الرّفع على تقدير "لا يكون رفثٌ، ولا يكون فسوقٌ"، وعليه يصير الجدال خارجا عن الحكم ومستقلا بحكمه في كونه لا جدال ولا نقاش في موسم الحج وميقاته أو مناسكه.

وبالجمع بين المعنيين والقراءتين انطلاقا من المسائل النّحوية في هذا الباب نجد أنّ المعنى هو الحث على عدم اقتراف الرّفث والفسوق والجدال بكلّ الأشكال طول مدّة الحجّ، وأنّه لا جدال في ميقات هذا الأخير أو في مناسكه.

4.5. قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) ﴾ سورة التوبة:40.

وقع الخلاف في قراءة "وكلمة الله"، فقرئت بالرّفع وهي قراءة الجمهور، وقرأ يعقوب بالنّصب فيها "وكلمةَ".

وعلى قراءة الجمهور فإنّها مرفوعة على الابتداء والواو قلها واو ابتدائية، وعلى قراءة النّصب فالواو عاطفة و"كلمة الله" معطوفة على "كلمة الذين كفروا"[21].

وتعدّد القراءة فيها موجب لاتساع المعنى، فالرّفع مستوجب أنّ المعنى هو علوّ كلمة الله دوما واستلزامها لذلك وأنّها متفرّدة لا تعطف ولا تقارن بكلمة دونها، يقول الزّمخشريّ:« وقرئ «كلمة الله» بالنصب، والرفع أوجه. وهِيَ فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلوّ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم»[22]. والنّصب يعني أنّ الله قد جعل كلمته عالية وما أراده الله فلا ينقضه يد مخلوق إلا بإذنه والله أعلى وأعلم، وقد وجدت العلاّمة ابن عاشور قد تحدّث عن هذا فقال:« وقرأ يعقوب، وحده وكلمة الله بنصب (كلمة) عطفا على كلمة الذين كفروا السفلى فتكون كلمة الله عليا بجعل الله وتقديره. وجملة والله عزيز حكيم تذييل لمضمون الجملتين: لأن العزيز لا يغلبه شيء، والحكيم لا يفوته مقصد، فلا جرم تكون كلمته العليا وكلمة ضده السفلى»[23].

5.5. قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)﴾ سورة القصص:23.

اختلف أهل القراءة في كلمة "يصدر"، قال ابن الجزريّ:« (واختلفوا) في: يصدر الرعاء فقرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال»[24].

فبضم الدال فمعناه: انصرف، ويصير المعنى: إنّ الفتاتين لا تردان البئر حتى ينصرف الرّجال.

وعلى القراءة الثانية فمعناه أنّ الفتاتين لا تردان حتى يصرف الرّجال مواشيهم[25].

وتعدّد القراءة انطلاقا من الجانب النحوي يستوجب توسعة في الدلالة، ويصير المعنى بالجمع أنّ الفتاتين لا تتقدّمان حتى ينصرف الرّجال ومواشيهم، وهذا لعمري موجب لإبراز كبير حيائهما وعظم خلقهما.

6.5. قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) ﴾ سورة سبأ:05.

وقع الخلاف ههنا في كلمة "معاجزين"، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الجيم من غير ألف في الثلاثة "معجِّزين" من الفعل عجّز المضعّف، وقرأ الباقون بالتخفيف والألف فيهنّ "معاجزين" من الفعل "عاجز"[26].

وعلى التضعيف يصير المعنى أنّهم مثبّطون عن الإيمان، أو أنّهم ينسبون العجز إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم[27].

وعلى قراءة "معاجزين" يصير المعنى أنّ الكفار يظنون أنّهم سيعجزون الله، أو أنّهم مغالبون[28].

قال القرطبيّ جامعا بين القراءتين ومبيّنا ما انطوت عليه القراءتان من اتّساع للمعاني:« والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، متقاربتا المعنى; وذلك أن من عجز عن آيات الله، فقد عاجز الله، ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون الناس عن الإيمان بالله، واتباع رسوله، ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله. فإذ كان ذلك كذلك، فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك»[29].

5. خاتمة:

أنزل الله تعالى كتابه المبين بلسان عربيّ مبين، ويسّر لهذه الأمة تلاوته فأنزله على سبعة أحرف، ومن إعجازه تعالى في كتابه المبين أن كان اختلاف القراءات فيه بابا في اتّساع المعاني من غير تعارض، وقد نظرنا في النماذج آنفة الذّكر ما يمكننا القول فيه إنّ علم التّركيب والمنجز النّحوي في دراسة المفسّرين لكتاب الله العزيز لهو بابٌ إلى الوصول إلى المعاني المختلفة والمتّسعة التي تتحمّلها القراءات في اختلافها، وممّا يمكننا حصره بإيجاز:

-إنّ القراءة القرءانية الصّحيحة سنّة متّبعة ولا يجوز رفضها لمجرّد أنّ علة نحوية لم تظهر في توجيهها.

-إنّ علم النّحو وعلوم اللغة آلة فهم كتاب الله ولا مناص من ذلك؛ فبها يستكنه ما في القرءان وقراءاته من أسرار.

-المنجز النحوي ومسائله المختلفة شرط لازم في فهم دلالات اختلاف القراءات وحكمتها، وبه تتجسّد وتتجلّى المعاني المختلفة.

-اختلافُ القراءات طريقٌ لاختلاف المعاني أو اتساعها من غير تضارب.

-القراءات القرءانية تحمل في اختلافها رحمة تتسع لتشمل مع رحمة التأدية الصوتية رحمةَ تعدّد الأحكام وترسيخ المعاني كمعنى خلق الحياء في اختلاف القراءة في سورة القصص.

- الدّرس اللغويّ آلة لإدراك أثر اختلاف القراءات في الحكم الفقهي كما مرّ في بعض النّماذج التطبيقيّة.

5 ـ الهوامش:

[1] صحيح البخاري: كتاب "فضائل القرءان"، باب "أنزل القرءان على سبعة أحرف"، حديث رقم (4992)، وصحيح مسلم: : كتاب "صلاة المسافرين وقصرها"، باب" بيان أنّ القرءان على سبعة أحرف وبيان معناه"، حديث رقم (818).

[2] صحيح البخاري: كتاب "فضائل القرءان"، باب "مدّ القراءة"، حديث رقم (5046).

[3] صحيح مسلم: كتاب "صلاة المسافرين وقصرها"، باب "جواز النافلة قائما وقاعدا"، حديث رقم (733).

[4] ينظر: جلال الدين السيوطيّ: الإتقان في علوم القرءان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1974م، ج1، ص168.

[5] ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، سوريا، د ط، 1979م، ج5، ص78.

[6] ابن الجزري: منجد المقرئين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1999م، ص09.

[7] عبد العظيم الزُّرقانيّ: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط3، د ت، ج2، ص412.

[8] أبو عمرو الداني: جامع البيان في القراءات السّبع، تح: محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005م، ج2، ص860.

[9] للاستزادة ينظر: محمد مفلح القضاة وآخرون: مقدّمات في علم القراءات، دار عمار، الأردن، ط1، 2001، ص54-62.

[10] وسيأتي ذكرهم.

[11] سيأتي ذكرهم.

[12] ابن الجزريّ: النشر في القراءات العشر، تح: محمد علي الضبّاع، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، د ط، د ت، ج1، ص09.

[13] القرطبي: جامع البيان في تأويل القرءان، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، مصر، ط1، 2000م، ج1، ص524.

[14] السّمين الحلبيّ: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، سوريا، ج1، ص288.

[15] السّمين الحلبيّ: الدرّ المصون، 288/1،278.

[16] ابن الجزريّ: النشر، 256/2.

[17] ينظر: أبو جعفر النحّاس: إعراب القرءان، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1421هـ، ج1، ص290. وينظر: محيي الدين درويش: إعراب القرءان وبيانه، دار ابن كثير، سوريا، ط4، 1415هـ، ج3، ص54.

[18] القرطبيّ: جامع البيان، 380/6.

[19] أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، لبنان، د ط ، 1420هـ، ج4، ص424.

[20] الزّمخشري: الكشّاف، 243/1.

[21] ينظر: أبو حسين البغوي: معالن التنويل في تفسير القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط1، 1420هـ، ج2، ص353.

[22] الزّمخشريّ: الكشّاف، 272/2.

[23] ابن عاشور: التحرير والتنوير، 206/10.

[24] ابن الجزري: النشر، 341/2.

[25] ينظر: الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط1، 1415هـ، ج10، ص269.

[26] ينظر: ابن الجزريّ: النشر، 327/2.

[27] ينظر: السّمين الحلبي: الدّرّ المصون، 291/8. والقرطبي: جامع البيان، 601/16.

[28] ينظر: السمين الحلبي: الدّرّ المصون، 291/8. والشّوكاني: فتح القدير، 545/3. وابن جزّي: التسهيل لعلوم التنزيل، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، لبنان، ط1، 1416هـ، 43/2.

[29] القرطبي: جامع البيان، 662/18.

6. قائمة المراجع:

2.محمد بن إسماعيل البخاريّ: صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النّجاة، ط1، د ت.

3.مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان، د ط، د ت.

4.الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط1، 1415هـ.

5.ابن الجزريّ: النشر في القراءات العشر، تح: محمد علي الضبّاع، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، د ط، د ت.

6.ابن الجزري: منجد المقرئين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1999م.

7.ابن جزّي: التسهيل لعلوم التنزيل، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، لبنان، ط1، 1416هـ.

8.أبو جعفر النحّاس: إعراب القرءان، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1421هـ.

9.جلال الدين السيوطيّ: الإتقان في علوم القرءان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1974م.

10.أبو حسين البغوي: معالم التنويل في تفسير القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط1، 1420هـ.

11.أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، لبنان، د ط ، 1420هـ.

12.السّمين الحلبيّ: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، سوريا، د ط، د ت.

13.عبد العظيم الزُّرقانيّ: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط3، د ت.

14.أبو عمرو الداني: جامع البيان في القراءات السّبع، تح: محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005م.

15.ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، سوريا، د ط، 1979م.

16.القرطبي: جامع البيان في تأويل القرءان، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، مصر، ط1، 2000م.

17.محمد مفلح القضاة وآخرون: مقدّمات في علم القراءات، دار عمار، الأردن، ط1، 2001م.

18.محيي الدّين درويش: إعراب القرءان وبيانه، دار ابن كثير، سوريا، ط4، 1415هـ.